﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤﴾ [النحل: 104]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الجاحدون بآيات الله تعالى محرومون من هدايات الإرشاد

لمّا ذَكَر الله تعالى في الآية السابقة افتراء الكافرين على الرسول ﷺ أنَّ الذي يُعلّمه القرآنَ بشر وأنه ليس من عند الله؛ جاءت هذه الآية بالوعيد الشديد لهم، ونفت عنهم الهداية لعدم إيمانهم، وجعلت لهم العذاب الأليم.

ومما يذكر في المناسبة أنه "لمّا ذَكَر الله تعالى هذا الجواب بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ في الآية السابقة على افترائهم أردفه هنا بالتهديد والوعيد، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾"[1]؛ إذ كانوا جاحدين آيات الله ﷻ، وهو ما أتى به الرسول ﷺ من المعجزات وخصوصًا القرآن، فمَنْ بالَغ في جَحْد آيات الله تعالى سَدَّ الله تعالى عليه باب الهداية، وأوعده بالعذاب الأليم[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾: الآيات جمع: الآية، وهي مشتقةٌ إما من (أيّ)؛ فهي التي تُبين أيًّا من أيٍّ، أو من قولهم: (أوَى إليه)، والصحيح أنها مشتقة من (التَّأيي) الذي هو التثبت والإقامة على الشيء، وتطلقُ على (العلامة) وعلى (البناء العالي)، والآية: مِن آيات الله، والجميع: الآيُ ... والآيات[3]، والآية: تقال لكل جملة من القرآن دالّة على حكم، وتقال لكل كلام من القرآن منفصل بفصل لفظي[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 272.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 597.
(3) الخليل، العين: (أيي).
(4) الرّاغب، المفردات: (أيي).

"والآية: الشيء العَجَب من قوله: ﴿يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [غافر: 13]، أي عجائبه، يقال: فلان آية من الآيات أي عَجَبٌ مِن العَجَب"(1)، والمعنى في الآية: بحجج الله وأدلّته.

2) ﴿لَا يَهْدِيهِمُ﴾: "الهاءُ والدّالُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ: أصْلانِ: أحَدُهُما: التَّقَدُّمُ لِلْإرْشادِ، والآخَرُ: بَعْثَةٌ لَطَفٍ، فالأوَّلُ قَوْلُهُم: هَدَيْتُهُ الطَّريقَ هِدايَةً، أيْ: تَقَدَّمْتُهُ لِأُرْشِدَهُ، وكُلُّ مُتَقَدِّمٍ لِذَلِكَ هادٍ، قالَ:

إذا كانَ هادي الفَتَى في البِلا *** دِ صَدْرَ القَناةِ أطاعَ الأميرا

وَيُنْشَعبُ هَذا فيُقالُ: الهُدَى: خِلافُ الضَّلالَةِ، تَقولُ: هَدَيْتُهُ هُدًى ... والأصْلُ الآخَرُ الهَديَّةُ: ما أهْدَيْتَ مِنْ لَطَفٍ إلَى ذي مَوَدَّةٍ، يُقالُ: أهْدَيْتُ أُهْدي إهْداءً"(2).

وهداية الله للإنسان على أربعة أوجه؛ الأوّل: الهداية التي عمّ بجنسها كلَّ مكلّفٍ، مِنَ العقل والفطنة والمعارف الضّروريّة؛ قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: 50]، الثّاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن، الثّالث: التوفيق الذي يختصّ به من اهتدى، وهو المذكور في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: 17]، الرّابع: الهداية في الآخرة إلى الجنة، وهذه الهدايات مترتبةٌ بعضها على بعض(3)، فقوله تعالى هنا: ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ﴾، أي: لا يَدُلُّهم، ولا يُرشدهم، بل يكلهم إلى ضلالهم يعمهون.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

من لم يؤمن بالله فليس أهلًا لهدايته

يؤكّد الله ﷻ في هذه الآية الكريمة أنَّ الذين رَفضوا قبول الإيمان بالله ﷻ ربًّا وإلهًا، وبالإسلام عقيدة وتشريعًا، وبمحمد ﷺ

(1) البَندنيجيّ، التّقفية في اللّغة، ص: 705.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدى).
(3) الرّاغب، المفردات: (هدى).

نبيًّا ورسولًا، ولم يصدِّقوا بالآيات أنها من عند الله؛ "لا يهديهم الله تعالى إلى الإيمان بآياته، وما أرسل به رُسله ﷺ في الدنيا، ولهم عذاب أليم موجِع في الآخرة"[1].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ مَن جاءهم الهدى فردّوه يعاقبون من الله بحرمانه وخِذْلانه لهم، لعلمه سبحانه أنهم ليسوا أهلًا لذلك؛ لسوء حالِهم التابعِ لسوء اختيارهم، ويُحرمون هدايةَ الله؛ لأنَّ طريقَ الهدايةِ هو الإيمانُ بالقرآن[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ فصل هذه الآية عما قبلها:

حرمان الكفار من هداية الله

فُصلت هذه الآية عما قبلها؛ لأنها جملة استئنافية مؤكدة لحرمان الكفار من هداية الله تعالى؛ لأن هداية الله تعالى لا تُمنح إلا لِمن آمن بآياته ﷻ بالإقبال عليها بإخلاص، يَتبصّرها ويتبين صِدقها؛ لذلك قالوا: "إنما كان عدم الإيمان بآيات الله مؤديًا إلى ألا يهديهم؛ لأن الهداية إنما تكون لمن يفكرون في آيات الله ونِعمه، ومَن لا يفكّر لا يهتدي فلا يَهديه"[3]، لذلك كان موقع هذه الآية من التي قبلها "موقع التعليل لجميع أقوالهم المحكية والتذييل لخلاصة أحوالهم، ولذلك فصلت بدون عطف"[4].

غرضُ التأكيد:

ترك النّظر في آيات الله تعالى، سبب الحرمان من الهدى

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾، تؤكِّد الآية الكريمة خبرَ نفي هداية الله تعالى عن الذين لا يؤمنون بآياته ﷻ؛ لأنهم ليسوا أهلًا لها؛ لِعُزوفهم عن الإقبال على لازمها وهو الإيمان بواهبها

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 604.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 450، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 160.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4274.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 289.

ﷻ، فـ"إضلال الله ﷻ لمن اختار الضلال أكيدٌ، وهذا ما جاء مؤكَّدًا بحرف التوكيد"[1].

وممّا يذكر في دلالة التأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ التفريق بين صنفين من الكافرين؛ صنفٌ يكون كافرًا ثم يؤمن، وصنفٌ آخر كافرٌ لا يؤمن وظلَّ على كفره، كأبي جهلٍ والوليد بن المغيرة، وعقبة بن أبي مُعَيط وغيرهم؛ فهؤلاء كان التأكيد في حقّهم بعدم الهداية لعدم إيمانهم.

دلالة تقديم نفي الإيمان على نفي الهداية:

مَـن وُفِّـق إلى هـداية الـدلالة والإرشـاد فـاز بـهداية المعونة إلى الإيمان

مما لفت أنظار العلماء في ترتيب معاني هذه الآية الكريمة أنَّ النظم الكريم قد رتَّب هِدايةَ الله تعالى للعبد على إيمانه بآيات الله ﷻ، بينما الظاهر المعروف أن الإيمان بالله تعالى وبآياته هو الذي يستلزم حصول الهداية الموصِّلة إليه، فالهداية تَحصُل قبل حصوله؛ وبذلك يقع الإشكال.

وقد أثار ابن عطية تلك الشُّبهة، وردّها فقال: "المفهوم من الوجود[2] أنَّ الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بآياته، ولكنه قدّم في هذا الترتيب وأخّر، تهمُّمًا بتقبيح فعلهم، والتشنيع لخطابهم، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف: 5]، والمراد ما ذكرناه، فكأنّه قال: (إنَّ الذين لم يؤمنوا لم يهدِهِم الله)"[3]، فاعتبر ابنُ عطية أنّ ﴿لَا﴾ في الآية الكريمة بمعنى (لم).

وذهب بعض أهلِ العلم إلى أن الترتيب جاء على أصله، وتكون الهدايةُ هنا بمعنى المعونةِ والتوفيق؛ يؤكد ذلك ما ذكره الشيخ الشعراوي بقوله: "إن الهداية نوعان: هداية دلالة وإرشاد، وهذه يستوي فيها المؤمن والكافر، فقد دَلَّ الله تعالى الجميع، وأوضح

(1) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 209.
(2) يقصد واقع الحال في الدنيا بحسب علم البشر.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 422.

الطريق للجميع، ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: 17]، أي: أرشدناهم ودَلَلْناهم؛ وهداية المعونة والتوفيق، وهذه لا تكون إلا للمؤمن، ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: 17]"[1].

وأمّا الذي لا يؤمن بآيات الله ﷻ جُحودًا وعنادًا، بعدما تبين له الحقُّ فتنطبق عليه هذه الآية.

فائدةُ التّعبيرِ بالموصول وصلته:

التّشهيرُ بالكفّار؛ لكونهم لا يلتفتون إلى آيات الله

معلوم أنّ الموصول فقيرُ الدلالة؛ يحتاج إلى جملةِ صلةٍ تَسُدُّ فقْر دلالته، تلك الجملة هنا هي ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بما فيها من عطاءات المضارعة، والقيد بالجارِّ والمجرور ... إلخ، وتلك الفضائل البلاغية لا يُتيحها من أدوات التعريف - بهذا الإيجاز - إلا الاسم الموصول.

لذلك كان "التعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ للتشهير بهم"[2]، و"هم هؤلاء المشركون، وهم كلُّ من في قلبه مرض، وفي عقله دَخَل، فلا يلتفت إلى آيات الله تعالى، ولا يفتح عقله وقلبه لها، بل يلقاها معرِضًا منكرًا، ويمرّ بها مجانبًا مجافيًا"[3].

سِرُّ العدولِ عن التّعبير بالكافرين إلى ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾:

انتفاءُ الإيمانِ عنهم هو سببُ عدمِ هدايتِهم

عدل القرآن الكريم عن وصف هؤلاء الذين "لا يصدقون بالقرآن أنه جاء من الله ﷻ"[4]، عن وصفهم بالكفر إلى نفي الإيمان الذي يعطي بمفهوم المخالفة وصفهم بالكفر لا محالة، غير أنَّ في إيثار نفي الإيمان - دون وصفهم بالكفر الصريح - تنبيهًا إلى سببيَّة الحكم عليهم بعدم الهداية؛ إذ كان سببَ حرمانهم من الهداية

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 13/ 8228.
(2) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 209.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 373.
(4) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/ 488.

التي تُمنح للمؤمنين انتفاءُ الإيمان عنهم صريحًا، مع تقديم أسباب الهداية إليهم، من رسول ورسالة وآيات هي أدلّة على صدقه.

وممّا يُذكر في سِرّ عدولِ القرآن عن وصف الكافرين إلى نفي الإيمان عنهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ أنهم لم يقفوا عند حيز الكفر فقط، بل منعوا غيرهم من الإيمان؛ فضلًا عن أنفسهم، وذلك بما قالوه عن القرآن من أنه أساطير الأولين، وأنه من تعليم البشر لرسول الله ﷺ.

دلالة التّعبير بالمضارع المنفي ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

في إيثار التعبير بالمضارع المنفيّ في قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ إتاحة لصيغة المضارعة التي تشير إلى بقائهم على حالهم الحالِك من الكفر والضلال وإبائهم قبولَ الإيمان أزمنةً مديدةً متجدِّدةً دون وقفةٍ مع النفس تَرُدُّها عن غيِّها، ويدلُّ على نَفْي تجدُّد الإيمان من جملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ التي تفصح عن أنهم يُجدِّدون لكلِّ دعوة إلى الإيمان تأبّيًا وامتناعًا ورفضًا جديدًا، وذلك يستلزم بطريق الكناية تَكَرُّرَ دعوتهم إلى الإيمان، فالأنبياء لا يَفْتُرون عن دعوة غير المؤمنين إلى الإيمان.

بقاءُ المشركين على حالهم الحالِك من الضلال أزمنة مديدة

سرُّ النّفي بـ ﴿لَا﴾ دون (لم) في قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

آثر القرآن الكريم التّعبير في نفي الإيمان عنهم بـ ﴿لَا﴾ دون (لم) في قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأن ﴿لَا﴾ تُفسِح مجال الإيمان لهؤلاء الكفار على الدوام ليدخلوه، ويفتح باب التوبة ما بقوا على قيد الحياة؛ أما (لم) فلا تناسب روح الدين؛ لأنّها تقطع بالحُكم على مَن رفض الإيمان بآيات الله تعالى ولو مَرّة واحدة، وتغلق دونه باب الإيمان فلم يُقبل منه بَعد الرفْض، وهذا ما ليس في الإسلام.

باب الإيمان مفتوحٌ للكافرين إذا أقلعوا عن كفرهم

براعةُ التّعبير بالآيات في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

آثر التّعبير بالآيات في قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ المادّة

آيـــاتُ الـلـه وبراهينُه دليلٌ قاطعٌ على صدق الـقـرآن، وعلى نُبوّة محمّد ﷺ

اللّغويّة لها تدلّ على جلاء المعجِزة، وإقامة الحجّة على رافضِ الإيمان؛ إذ إنّها دلائلُ ساطعةٌ، كما أنّها غرائبُ وعجائبُ مؤكِّدة لدعوى النّبيِّ ﷺ، لم يعهدها الناس قط؛ فكان التسليمُ لها أولى.

ولأنها تطلق على أنواعٍ متعدّدةٍ؛ حيث تشمل العديدَ من الآيات التي تكون بمنزلة العلامات والمعجزات، وإن كانت تتميّز عنهما بالثّبوت والاستقرار؛ فضلًا عن إطلاقها على الآي القرآنيّ؛ فهي الأصل في الإطلاق.

نكتةُ التّعبير بجمع الآيات:

الكثرة والتنوع

آثرَ القرآن الكريم التعبير بالجمع في قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِ﴾؛ للدلالة على كثرتها وتنوُّعِها، وأنّ في آحادِها تناسبًا لقناعات آحاد الناس، إن لم تكن كلها مقنعةً لهم كلِّهم.

ومما يؤكّد دلالة الكثرة ما أشار إليه الشيخ أبو زهرة من أنَّ آيات الله تعالى ثلاثة أقسام: **القسم الأول**: الآيات الكونية، وهي الآيات الدالة على أنه وحده الخالق لكل شيء، وفي كل آية دلالة على الوحدانية.

والقسم الثاني: المعجزات التي تقترن بدعوى النبوة ويتحدّى بها النبي مَن يُكذِّبونه أن يأتوا بمثلها: كعصا موسى، وإبراء الأكمه والأبرص لعيسى عليه السلام، وانشقاق القمر لسيدنا محمد ﷺ.

والقسم الثالث: الآيات القرآنيّة، والإيمان بها فرع الإيمان بمحمد ﷺ؛ لأنّ الإيمان بها إيمان بالقرآن، والإيمان بالآيات التي نفاها القرآن عنهم وترتّب على نفيها نفي الإيمان والهداية، هو الإيمان بالآيات الكونية، والإيمان بالمعجزة الكبرى معجزة النبي ﷺ، وهي المعجزة التي تحدّاهم أن يأتوا بمثلها فعجزوا[1].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/ 4273.

معنى الباء في قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾:

آثر التعبير بالباء في قوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنها تثري السياق بمعاني: الاستعانة، والسببيّة، والتّعليل... فما أبهاها! وعلى ذلك تُضَمِّنُ الباءُ الفعلَ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ معنى الفعل (يستعينون) و(يستدلون) ... إلخ؛ لذلك كانت تعدية الإيمان المنفي عن هؤلاء إلى الآيات بالباء تُقرّر أنَّ الله تعالى منحهم الأدلة التي يستعينون بها على تصديق الرسول ﷺ، والآيات أدوات يستعان بها في الوصول إلى الإيمان الصادق بالله تعالى؛ لأنها بمنزلة الدليل والتعليل لأمر الإيمان.

آيات الله تعالى هَداياه إلى خلقه

دلالة إضافة الآيات إلى الله ﷻ:

دلّت إضافة الآيات إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ على عظمتها وقوة تأثيرها، مع أنّ التعبير بالآيات وحده كافٍ في الدلالة على عظمتها، وأنها مُبْهِرَة، وأنها من الغرابة والعَجب بما يَضْمن لها التأثير في الناس، ومع ذلك دَعَم النظمُ الكريم تلك الدلالاتِ العظيمةَ بإضافة الآيات إلى الله تعالى، وأضفى عليها عظمةً إلى عظمتها، وقوةَ تأثيرٍ إلى قوتها، فإذا لم تُجْدِ مع الكفار برغم كل ذلك كانوا جديرين بالحرمان من هداية الله تعالى.

تعظيمٌ لها، وبيانٌ لرسوخها وقوّة تأثيرها

سِرُّ العدول عن (القرآن) إلى (الآيات):

آثَر التّعبيرُ بقوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِ﴾ دون (القرآن) لما يحمله هذا التعبير من الدلالات في مخاطبة المدعوين؛ لأنها تحملهم على الإيمان بالله تعالى، لما سبق في ذهن المدعوين من آيات الأنبياء السابقين مع أقوامهم؛ فكان التعبير بها من هذا الباب، ولأنّ لفظ القرآن اسم واحد مع أنه يطلق على آلاف الآيات، أما لفظ الآيات فصيغتها جمع يلفت إلى معاني التعدّد، والتنوع، والكثرة، ولأن لفظ الآيات يحمل معاني الغرابة، والعجب، بخلاف لفظ (القرآن).

بلاغة القرآن في خطاب المدعوين مِن خلال الآيات الباهرات

دلالة نفي الهداية عنهم بـ ﴿لَا﴾ دون (لن):

من رحمة الله أنّــه لـم يغلق باب الهداية

دلّ التّعبيرُ بـ ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ دون (لن) للدّلالة على فتح الباب للكافرين إذا انخلعوا من كفرهم وبحثوا عن ربهم؛ فالله يفسح لهم الطريق كلما حانت الفرصة؛ لذلك لم يغلق دونهم باب القبول بالنفي بـ (لن) حتى وإن كانوا مصرّين على العِناد والجحود، ويُجدِّدون الرفض كلما جُدِّدتْ لهم الدعوة إلى الإيمان؛ لذلك أوثرت ﴿لَا﴾ دون (لن)، ولمراعاة التناسب بينها وبين جملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

لطيفةُ التّعبير بالمضارع المنفيّ في الهداية:

تـجـدُّدُ نـزولِ العقوبة بحسب المعصية

جاء الفعل مضارعًا هنا في قوله تعالى: ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ﴾ بإزاء المضارع السابق في نفي الإيمان من قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ وذلك يُعطي إشارةً إلى تجدّد نزولِ العقوبة بحسب المعصية؛ فما داموا لا يؤمنون فإنَّ الله تعالى لا يهديهم.

دلالةُ عدمِ ذِكْر جهة الهداية:

الـكـفّـار محرومون من الهداية إلى كلّ خير

أعمل النظمُ الكريمُ الفعل (يهدي) في ضمير ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وسَكت عن ذِكر جهةِ الهدايةِ التي نَفَى الله تعالى هدايته إياهم إليها: أهي هدايتهم إلى الإيمان في الدنيا؟ أم هدايتهم إلى الجنان في الآخرة؟ أم هدايتهم إلى غير ذلك؟

وقد تعدّدت الأقاويل في ذلك المحذوف، فقالوا: "لا يهْديهم إلَى الحُجَّة"[1]، و"لا يهديهم إلى ما ينجيهم من الحق لِما يعلم من سوء استعدادهم"[2]، "ولا يمدّهم بأمداد توفيقه وهدايته"[3]، و"لا يوفّقهم

(1) الفيروزابادي، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص: 230.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 470.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 373.

إلى طريق النجاة"[1]؛ ففي هذا الحذف إفادةٌ لعمومِ النفي، فهم محرومون من الهداية إلى كل أنواع الخير.

بلاغة التّعريف بالاسم الظّاهر:

إظـهـارُ اسـمِ الـجـلالـة أوقـع في النّـفس مِـنَ الإضمار

كان حقُّ التّعبير - بمقتضى قواعد اللغة - الاكتفاءَ بالضمير في الفعل ﴿يَهۡدِيهِمۡ﴾ دون النَّصِّ على الاسم الظّاهر ﴿ٱللَّهُ﴾، فيكون السياق: (إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم ولهم عذاب أليم)، غير أنَّ إظهار اسم الجلالة العظيم أوقعُ في النفس من الإضمار؛ إذ إن التكبُّرَ على آيات الله تعالى يقتضي الحرمان من توفيق الله تعالى، ولمراعاة التناسب بين جملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وجملة ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ من ناحية التوازن اللفظي والتقابل المعنوي.

دلالة تقديم المفعول:

الـكـفّـارُ ليسوا أهلًا لِنَيْل هداية الله تعالى

المفعول في جملة ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ وإن كان واجبَ التقديم، إلا أنّ تقديمه يُلمح إلى ابتغاء حرمانهم هم بخاصّة من هداية الله تعالى برغم أنها متاحة موهوبة لمن يطلبها، والمعنى: لا يهديهم الله تعالى هم بخاصّة، وهذا التقديم وإن لم يقطع باختصاصهم بهذا الحرمان فهو يُقرِّره في حقهم، ويؤكد أنهم لا ينالونه، وأنهم ليسوا له بأهل ما داموا على جحود حق الله تعالى في توحيده، والإيمان به، وبأسمائه الحسنى، وصفاته العلى.

علةُ تقديم جملة نفي الهداية على جملة العذاب:

التّنبيهُ بسببيّة المعنى السّابق في وجود اللّاحق

رُتِّبتْ جملة ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على جملة ﴿لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأنّ حرمانهم من الهداية هو الذي طوَّح بهم في مجاهل الكفر والضلال، والكفرُ والضلال هو سببُ تعذيبهم بالعذاب الأليم، فالجملة السابقة سببُ السببِ المؤدّي إلى الثانية، ولا يصحّ العكس بحال.

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 682.

ولدفع تَوَهُّم البعض "أنه لكونه ﷻ هو المُضِلّ لا يتوجّه اللوم عليهم؛ نفى ذلك بقوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي بذلك، لِمُباشرَتهم له مع حَجْب المراد عنهم، وخَلْق القدرة لهم؛ إجراءً على عوائد بعض الخلق مع بعض"[1].

نُكْتَةُ تقديمِ الجارّ والمجرور على متعلّقه:

العـذاب الأليم مـقـطـوع بـه للكافرين بآيات الله تعالى

في تقديم الجارّ والمجرور ﴿وَلَهُمْ﴾ على متعلّقه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ "تهديدٌ لهم ووعيدٌ على ما هم عليه من الكفر بآياتِ الله تعالى، ونسبة رسول الله ﷺ إلى الافتراءِ والتعلُّمِ مِنَ البشر، بعد إماطةِ شُبهتِهم وردّ طعنهم"[2].

كما أنّ في ذلك القطعَ بتعذيب هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، وأنّهم لن يَنْجوا منه إن ماتوا على كفرهم واستكبارهم وإنكارهم بعثةَ النّبيّ ﷺ، ورسالةَ الإسلام، وكتابَه: القرآن الكريم.

سرُّ التعبير بالعذاب دون العقاب:

العـذاب أشملُ وأنسبُ لمجازاة الـكـفـر بـالـلـه تعالى

لما كان العقابُ محدودًا والعذاب لا حدود له، وأنّ طبيعة العقابِ أن تكون على إثر خطأ أو جرح، وأن العذاب أشمل من ذلك، وكان العقاب أيسرَ من أن يكون جزاءً لكفرٍ - إذ الكفر بالله ﷻ أكبرُ الكبائر، فلا يوازيه ولا يكافئه إلا العذاب -؛ لكل ذلك كان التعبير بالعذاب هنا أنسب لجريمة الكفر بآيات الله تعالى وعدم الإيمان بها برغم وضوحها، وكان أنسب لمجازاتهم على الكيد لها؛ بخلاف العقاب فقد يكون يسيرًا لارتباط العقوبة بالذنب؛ فإذا عَظُم الذنب عظمت العقوبة، وإن صغر الذنب كانت العقوبة على قدره، بخلاف العذاب فهو أعمّ وأشمل.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 257.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 142.

وجهُ وصفِ العذاب بـ ﴿أَلِيمٌ﴾ دون (مؤلم):

عـذاب الكفّار في الآخرة مِنَ الفظاعة بحيث لا يُحيط به وصفٌ

صيغ وصف ﴿أَلِيمٌ﴾ صيغةَ مبالغة، وهو بمعنى (مؤلم)، غير أنَّ وصف ﴿أَلِيمٌ﴾ أدخلُ في الإيلام، وأدلُّ على شدَّتِه بحيث لا يُحتمل، أما (مؤلم) فيطلق على كل ألم، ولا تبلغ صيغة اسم الفاعل (مؤلم) مبلغ صيغة المبالغة ﴿أَلِيمٌ﴾ في الترجمة عن هول عذاب من يجحد آيات الله ﷻ وفظاعته.

وفي وصف ﴿أَلِيمٌ﴾ حرفُ مدٍّ يُشعر بأنه عذاب يَتطاول إيلامه على الكافر، ويمتدُّ عليه ولا ينقطع عنه، أما (مؤلم) فاللفظ مقطوع قطعًا قد يوحي بانتهاء إيلامه إلى أمدٍ محدَّد، وهكذا تتآزرُ الصيغةُ الصرفية مع الإشارة الصوتية على بيان ما سيلقاه الكافر من عذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ متطاول.

سرُّ وصف العذاب بـ ﴿أَلِيمٌ﴾ دون غيره:

تتنوَّعُ أوصافُ العذاب في الذِّكر الحكيم بِحسب نوع العِصيان

تستدعي السياقاتُ القرآنية المختلفة أوصافًا للعذاب بِحَسَبِها، ومما اقتَضى وصفَ العذاب بـ ﴿أَلِيمٌ﴾ هنا هو الحديث عن نَفْيِ الإيمان، وما يستلزمه من الكفر الذي مَحَلُّه القلوب، و﴿أَلِيمٌ﴾ - كما فسَّره ابن عباس رضي الله تعالى عنه - هو الوجيعُ الذي ينتهي ألمُه ووجعه إلى القلب.

ولمّا كان الكفر بالآيات والجحودُ بها من عمل القلوب؛ كان العذاب الأنسب له هو الـ ﴿أَلِيمٌ﴾ الوجيع الذي يتوجَّهُ إلى القلوب محلِّ الكفر، فوجه المناسبة لذلك بَيِّنٌ محقّق[1].

معنى عطف قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ما قبله:

الدّلالةُ على حرمانهم مِنَ الخير وإلقائهم في الشّر

عطف قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على قوله تعالى: ﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾؛ للدلالة على حرمانهم من الخير وإلقائهم في الشر؛ لأنهم إذا حرموا الهداية فقد وقعوا في الضلالة، وماذا بعد الحق إلا الضلال[2].

---

(1) كتب الدكتور أحمد محمد محمود سعيد في هذه الفكرة بحثًا بعنوان: (من وجوه الملاءَمة بينَ المَقال والمَقام في وصْفَي العذابِ بالمهين والأليم في الذّكر الحكيم) نُشر في مجلة قطاع كليات اللغة العربية، القاهرة، عام: 2008م.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 289.

دلالة موقع هذه الآية بين ما قبلَها وما بعدَها:

التّعجيلُ إلى ذِكر الإنذار، والتّخويف والتّحذير ممّا ينتظر المشركين

هذه الآية بمنزلة استطرادٍ، جاء معترضًا بين طرفي الحديث عن التدليل على كَذِب الذين يُلحدون بالقرآن إلى لسانٍ أعجميٍ في حين أنهم يُبصرون القرآن الكريم بهذا المستوى الرفيع من الفصاحة والبيان، والغاية من توسيطها - والله تعالى أعلم - التعجيلُ إلى ذِكر الإنذار والتخويف، وإلى التحذير مما ينتظرهم إنْ أصرّوا على عدم الإيمان بآيات الله تعالى الباهرات المُبهرات.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العذاب والعقاب:

"العقابُ يُنْبِئُ عن استحقاقٍ، وسُمّي بذلك لأن الفاعل يستحقُّه عَقيب فِعْله، ويجوز أن يكون العذاب مستحَقًّا وغير مستحقّ، وأصل العقاب التُّلُوُّ، وهو تأدية الأوّل إلى الثاني ... وفي التنزيل: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ [النمل: 10]، أي: لم يرجع بعد ذهابه تاليًا له مجيئه"[1]، و"يقال للظالم المبتدئ بالظلم: إنه معذِّب، وإن قيل: معاقِب، فهو على سبيل المجاز لا الحقيقة؛ فبينهما عموم وخصوص"[2].

العذاب والألم:

"أنَّ العذاب أخصُّ من الألم، وذلك أن العذاب هو الألم المُستمرّ، والألم يكون مستمرًّا وغير مستمرّ؛ ألا ترى أنّ قَرْصة البعوض ألمٌ وليس بعذاب، فإن استمرّ ذلك قلت: عذّبني البعوض اللّيلة، فكلّ عذاب ألمٌ، وليس كلّ ألم عذابًا، وأصل كلمة العذاب الاستمراء، ومنه يقال: ماء عذب؛ لاستمرائه في الحَلْق"[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 364.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 365.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 354.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»